أقسام علم النفس في الوطن العربي واضطراب الهوية

إعداد

أ.د/ عثمان حمود الخضر

كلية العلوم الاجتماعية - جامعة الكويت

استلام البحث : ١٤ / ٢ /٢٠١٩ قبول النشر: ٢٨ / ٢ / ٢٠١٩

المستخلص :

تشخص الورقة واقع أقسام علم النفس في الوطن العربي، ملقية الضوء على ما تعانيه من اضطرابات في الهوية الفكرية، والبحثية، والإدارية، والمهنية، والجنسية، إضافة إلى اضطراب هوية فلسفة التعليم، والنظم، واللغة، والانتماء. وتدعو لبلورة هوية مشتركة لهذه الأقسام، وتستعرض الجهود السابقة التي تمت في هذا الشأن. وتنادي أن تنطلق العلوم النفسية في الوطن العربي، بقيادة روادها في الجامعات العربية والجمعيات والروابط والاتحادات النفسية، من خصائص المجتمع العربي الإسلامي وتراثه الزاخر، وتعكس حاجاته وأولوياته، بحيث تدعم خطط التنمية في بلادها، مستفيدة من التقنيات الحديثة في القياس والتواصل والرصد والتخزين والتدوين، كما تدعو إلى العمل الجماعي للمختصين النفسيين لتطوير أطر ونماذج نفسية تناسب السياق الثقافي التي تعمل به.

الكلمات المفتاحية: أقسام علم النفس؛ الوطن العربي؛ الهوية؛ التوطين؛ علم نفس إسلامي

Abstract:

This paper analyses the current situation of the psychology departments in the Arab World, shedding the light on its identity disorders in the areas of intellectual, professional, managemental, philosophical, systematical, linguistic, and belongness. The paper calls for creating shared identity for these departments, and reviews past efforts in this regard. It also proposes that psychology in the Arab World should have its unique identity which stems from Islamic and Arabic culture,

values, and history, and reflects its characteristics and needs. The paper calls for psychology in this part of the world to support the development plans in its countries. And to benefit from new trends in measurements and applications. It also encourages collaborative work among Arab psychologists to develop new models and theories consistent with its culture and values.

Keyword: Psychology Departments; Arab World; Identity; Indigenous; Islamic Psychology

مقدمة :

يشعر الاختصاصيون النفسيون العرب بالفخر لانتسابهم لأمة كان لها فضل السبق في البدايات المبكرة التي شكلت أساس العلوم الحديثة كما نفهمها اليوم، فقد طور بعض العلماء المسلمين كابن سينا، وابن رشد، والغزالي، والبلخي، والكندي، والرازي، والفارابي، ومسكويه، وابن خلدون، وغيرهم، منذ بدايات القرن التاسع الميلادي أفكارا علمية يمكن أن نصنفها بأنها مواضيع نفسية بامتياز، لا مجال لذكرها هنا، ويكفي أن نقول إن أول مستشفى عُرف بأنه يعالج أمراضا عقلية أنشأ في القرن التاسع ميلادي كان في دمشق (أحمد، ٢٠٠٦). لكن رغم هذه البداية المبكرة، إلا انها لم تستغل، أو لم تكن كافية لبلورة هوية مستقلة لعلم نفس عربي إسلامي يماثل ما هو غربي.

فلم تظهر بوادر كتابات نفسية في الوطن العربي وفقا للنسق الحديث إلا في أواخر القرن التاسع عشر في كل من لبنان ومصر، في كتابات بسيطة في مجلة "المقتطف" التي تأسست في بيروت عام ١٨٧٦ والتي انتقلت فيما بعد للقاهرة عام ١٨٨٥. كما كان أول كتاب يحمل أسم "علم النفس" قام بتأليفه محمد شريف سليم عام ١٨٩٥ (مراد، ١٩٦٥)، في حين يمكن اعتبار كتاب "الطريقة المبتكرة لقياس العقول .." الذي نشره أحمد فكري عام ١٩٢٠ هو أول كتاب سيكولوجي عربي يتناول ذكاء الأطفال. كما يمكن أن نعد افتتاح قسم الفلسفة وعلم النفس بجامعة القاهرة، التي أسست في عام ١٩٠٨، بداية أكاديمية منظمة لتدريس علم النفس، رغم كونه آنذاك مقررا منفصلا متأثرا بمدرسة علم النفس الفرنسية التي ركزت اهتمامها بعلم النفس العام. ثم تأسيس المعهد العالي للتربية عام ١٩٢٨ الذي اهتم بالعلوم التربوية والنفسية. كما نلحظ أن أول دراسة امبيرقية موثقة ومنشورة تمت في مصر عامي ١٩٢٨-١٩٢٩ لتقنين اختبار "بلارد" للذكاء Ballard's Test of Intelligence على ٤٠٠٠ طفلا ومراهقا، تبعها تقنين اختيار ستانفارد-بينيه عام

١٩٢٨، كما قدم علم النفس لطلبة الثانوية المصرية عام ١٩٣٣ كجزء من مقرر الفلسفة (Abou-Hatab, 1997). كما نجد أن أول جمعية نفسية مهنية أسست في الوطن العربي في ١٩٤٧ وهي الجمعية المصرية للدراسات النفسية.

ويلحظ المتابع أن هناك توأمة واضحة بين علم النفس والفلسفة والاجتماع، تجدها في معظم جامعات علم النفس في الوطن العربي، لكن لم يحدث انفصال حقيقي بينهم إلا في عام ١٩٧٤ في جامعات القاهرة والإسكندرية وعين شمس (Soueif, 1991)، تبعها انشاء أول قسم علم النفس في السودان عام ١٩٦٧ في كلية الأحفاد للمرأة، واليوم يدرس علم النفس كقسم منفصل في معظم الجامعات العربية، كما يدرس في معظم الثانويات العامة أيضا (عيون السود، ٢٠٠٠). ولم تلحق باقي الدول العربية بمصر، التي لها فضل السبق في هذا المجال، إلا في الخمسينات والستينات من القرن الماضي، ورغم أن عمر علم النفس العربي اليوم أكثر من خمسين عاما، إلا أنه لم يصل لمرحلة الانطلاق بعد (أحمد، ٢٠٠٦).

برزت في الجامعات المصرية، التي كانت السباقة في انشاء أقسام علم النفس في الوطن العربي، ثلاثة اتجاهات علمية تعد مداخل لفهم ودراسة السلوك، الأول اتجاه تجريبي احصائي كان له الفضل في تطوير البدايات الأولى للمقاييس النفسية في الوطن العربي، وأبرز رواد هذا الاتجاه هو عبدالعزيز القوصي وإسماعيل قباني، الذي أسس أول مختبر في علم النفس في كلية التربية بجامعة القاهرة. أما الاتجاه الثاني فيمثل المدرسة التحليلية والذي كان مصطفى زوير أبرز روادها. في حين كان الاتجاه الثالث يركز على تكاملية الانسان من حيث هو كائن فسيولوجي، وكان من أبرز رواده يوسف مراد، الذي أسس وتلامذته أول مجلة عربية متخصصة في علم النفس في جامعة عين شمس سميت مجلة علم النفس. وفي مصر اليوم، يمكنك أن تجد الاتجاه الموضوعي التجريبي والتطبيقي الإكلينيكي في جامعة القاهرة، في حين تجد الاتجاه التحليلي أكثر وضوحا في جامعة عين شمس، أما المدرسة الإنسانية التي تهتم بالصحة النفسية فيمكن تلمس معالمها في جامعة الأزهر، في حين أن التوجه العضوي أكثر وضوحا في كليات الطب النفسي.

وارتبط تطور علم النفس في باقي الأقطار العربية بنشأة الجامعات فيها، وكان ذلك في الخمسينيات والستينيات والسبعينيات. ومعظمها في كلية التربية وبعضها في الآداب. ويسود المنهج التحليلي في جامعات بلاد الشام وشمال أفريقيا حيث يظهر الاهتمام بالتحليل النفسي، لكن الاتجاه الموضوعي التجريبي أكثر وضوحا في الجامعات الخليجية وفي اليمن والعراق.

اضطراب الهوية :

بعد أن قمنا باستعراض سريع للبدايات الأولى لنشأة علم النفس في الوطن العربي، سنحاول الآن تلمس هوية هذه الأقسام وما تعانيه من اضطراب يؤثر سلبا على انطلاقها، ويعيق من مسيرها.

أولا: اضطراب الهوية الفكرية

لا تزال العلوم النفسية في البلاد العربية تعتمد على الأطر النظرية والمنطلقات الفكرية والأدوات النفسية التي نشأت أساسا في الغرب، قام به علماء نفس غربيون متأثرين بتاريخهم وخلفياتهم الثقافية، استمدوا معارفهم النفسية من خلال بحوث أجريت في بلادهم وعلى عينات من بيئتهم، وفي معظم الأحيان لم يتم نقد مسلّمات وفروض ومفاهيم هذه العلوم من وجهة نظر الثقافة العربية والإسلامية، وقد يرجع ذلك إلى أن معظم الاختصاصيين النفسيين العرب والمسلمين يفتقرون لخلفيات شرعية كافية، أو لا يتوافر لهم إطار مرجعي يُقيّمون من خلاله ما يرد إليهم، أو بسبب الانبهار المفرط بالحضارة الغربية، مما أفقد المختص النفسي المسلم والعربي، والقسم العلمي الذي ينتمي له، أي تميز في هويته قائم على مخزونه وتراثه الثقافي والتاريخي (الحكمي، ١٩٩٧). ويعبر أحروشاه (١٩٩٤، ص٩) عن عمق أزمة الهوية بالقول أنه ..

"إذا كان تاريخ السيكولوجيا الغربية، يشكل في جزئه الكبير تاريخ محاولاته في الخلق والإبداع، فإن تاريخ ما يسمى بالسيكولوجيا العربية ما يزال ينتظر من يكتبه، وفي اعتقادنا أن سبب ذلك لا يكمن، كما يعتقد البعض، في حداثة هذا العلم في الوطن العربي أو في محدودية تراكمه الكمي، بل أن المشكل الحقيقي يتجلى في عدم أصالة إنتاجنا السيكولوجي، وبالتالي عدم جدوى الدخول في مغامرة التأريخ لشيء ما يزال يتخبط في متاهات البحث عن التأسيس والبناء، وما نعانيه هو أن خطابنا السيكولوجي لم يتجرد بعد من الدور الذي يلعبه كوكيل فرعي لمدارس واتجاهات سيكولوجية لا علاقة لها بخصائص الإنسان العربي ومقوماته الأساسية".

لقد أدى انعدام الهوية هذا إلى حالة من الانفصال بين واقع الإنسان العربي ومستوى الممارسة النفسية اليومية، مما ولد معه حالة من العجز عن الابتكار والإتيان بجديد، وضعف الأصالة البحثية، بحيث أصبحت معظم البحوث في الوطن العربي، ومن ذلك رسائل الماجستير والدكتوراه، تكرارا لنظائرها في الغرب.

ويمكن وصف العلاقة بين علم النفس العربي وعلم النفس الغربي بأنها علاقة استيراد وتصدير، على حد تعبير الباحث التركي "فاساف" (Vassaf , 1987)، وهذه العلاقة، كما يراها أبوحطب (Abou-Hatab, 1997) ليست قائمة على حاجة فعلية "للمُستورد" بقدر ما هي نتاج قوى السوق القائمة على علاقة تصدير من جهة واحدة، لا تسبقها غربلة لهذا المنتج، ولا معرفة كافية بمتي وكيف ومع من يستخدم،

ويرى أن هناك اعتمادية مفرطة من قبل الباحثين النفسيين على المنتج النفسي الغربي، تخفي نقص في الثقة بالنفس، وتوحّد بشخصية الغربي المتغلب، وتقمص سلوكياته وتبني أفكاره في كل شيء. ويمكن أن تلمس أزمة الهوية هذه في انعكاسها على عدة مجالات، من ذلك أن معظم المقاييس المستخدمة في المجال النفسي مترجمة، وجزء كبير منها لم يخضع لاشتراطات التقنين، حيث بنيت على نظريات وأطر ونماذج معرفية غربية، تم تجريبها على عينات لا تتماثل مع نظائرها العربية.

من جانب آخر، يشكل أعضاء الهيئة التدريسية في قسم علم النفس الواحد في الوطن العربي مزيجا فكريا متنوعا بسبب تنوع المدارس الفكرية للجامعات التي ابتعثوا إليها للحصول منها على درجة الدكتوراه، كالمملكة المتحدة وامريكا وفرنسا وألمانيا، وإن كان هذا التنوع مفيدا في ثراء المعرفة وتنوع زواياها، إلا إن ذلك ولد حساسيات لدى بعض الأعضاء الأقل نضجا، تظهر في تفاخرهم بالجامعات التي تخرجوا منها، أو في تعصبهم الأكاديمي لطريقة تدريسهم أو للأنظمة التي يرونها أنسب، ولا يقابل ذلك نتاجا علميا ولا بحثيا لهم يمكن أن يعطي مصداقية لآرائهم، فاقم من ذلك قوائم تصنيف الجامعات والأقسام غير الموضوعي وغير الأمين أحيانا، فيرى حنفي (٢٠١٥) أنه "إذا كان هناك بعض التأثير الذي يمكن أن تفعله هذه التصنيفات، فهو في إثارة الخلافات الشديدة بين الأكاديميين والإداريين على مزايا وهيبة مؤسساتهم الخاصة، والمناقشات التي لا تتجاوز حدود فقاعة من المجتمع التي نهمها مثل هذه الأرقام". ومن جانب آخر، يمكننا أن نلحظ صراعا آخر بين الأطباء النفسيين والاختصاصيين النفسيين، وبين الأكاديميين والممارسين. وقد تدخل أحيانا الطائفية والقبلية لتلقي بظلالها سلبا على القسم العلمي فتشرذمه أكثر.

ثانيا: اضطراب الهوية البحثية

ولأسباب مرتبطة بنشأة علم النفس بالوطن العربي، نجد أن مجالات الصحة والعيادي والتربوي تستحوذ على اهتمامات الباحثين (Sabourin & Knowles, 2004)، ومع بعض الاستثناءات القليلة، فإن معظم الباحثين العرب يكتب بصورة متقطعة في موضوعات منفصلة، فلا يوجد استمرارية في قضية معينة، والمحفز للبحث غالبا ما يكون توافر أداة القياس وليس جوهرية مشكلة البحث. كما يمكن لنا أن نتلمس هوية الأبحاث النفسية العربية ونقول بأن معظمها يمكن تصنيفه ضمن أبحاث مجالات علم نفس الشخصية، وعلم النفس الاجتماعي، والتربوي، والإكلينيكي، والمعرفي، والنمائي، مع غياب ملحوظ للبحوث التنظيرية، كما أن معظمها لا يحمل الهم العربي أو الإسلامي ولا حتى الوطني، حيث يتناول قضايا بحثية لا تحظى بأولية في بلادها، مع افراط في استخدام المنهج الوصفي الارتباطي، يقابلها ندرة في الدراسات التجريبية، ربما لقلة وضعف تجهيز المختبرات النفسية، كما يعتمد الكثير منها على عينات طلابية متاحة، تم اختيارها بطريقة غير عشوائية، وما ذكرناه هنا

يمكن تعميمه على رسائل الماجستير والدكتوراه أيضا، والتي يعاني بعضها من الاقتباسات غير أمينة.

لا نذيع سرا حين نقول بأن مساهمتنا المعرفية كباحثين عرب في الناتج المعرفي العالمي محدودة جدا، يمكن أن نعزو جانبا من ذلك لمحدودية الدعم البحثي، ليس هذا فقط، بل حتى ما ننتجه منها لا يظهر في قواعد البيانات العالمية، وهو بذلك قليل إن لم نقل عديم الأثر، وهذا الأمر له أسبابه، منها أن غالبية أعمال الباحثين العرب يتم باللغة العربية، وهذا إن كان مفيدا في اظهار نشاط الباحث في الإقليم العربي، ويمد طلاب علم النفس بمراجع عربية ميسرة في التخصص، إلا أن ذلك يقوض من فرص العالمية، ويساهم في ضبابية هوية علم النفس العربي لدى المختصين خارج الإقليم، ومن أسبابه أيضا ما يعانيه الباحث العربي من صعوبات بالغة في النشر في المجلات العالمية المحكمة نظرا لنمطية وتكرار مشكلات البحث، وضعف بنائها المنهجي، وندرة عامل الجدة والابداع فيها، فضلا عن أن التواصل مع علماء النفس الغربيين والمشاركات في المؤتمرات النفسية محدود جدا نظرا لضعف ميزانيات المهام الخارجية، وضعف اللغة الأجنبية لبعض الباحثين العرب. ويشعر من يشارك منهم في هذه المؤتمرات بحالة من الاغتراب النفسي، وشعور بالأسى على تخلفنا في السباق الحضاري.

وقد آن الأوان لتطوير مجس عربي مشابه لمقياس "عامل التأثير" Impact Factor يمكن من خلاله تمييز المجلات النفسية الجادة، وتتبع ورصد تأثير المقالات المنشورة فيها. وقبل ذلك، نحن بحاجة إلى إصدار المزيد من المجلات النفسية المتخصصة، حيث أن الباحث العربي يجد محدودية في قنوات النشر، ويضطر أحيانا للنشر في مجلات معتبرة، لكنها واسعة المجال، كالمجلات التي تنشر الأبحاث الاجتماعية أو الإنسانية دون تخصص دقيق، ومن المعلوم أن مثل هذه المجلات لا تجتذب القراء المتخصصين.

ثالثا: اضطراب الهوية الإدارية

هناك ما يقارب ١١٠ قسما لعلم النفس في الوطن العربي، يرتبط معظمها إداريا بجامعات حكومية، وهذا الانضواء تحت العباءة الحكومية جعل من السهل أن ترث أمراض الجهاز الحكومي كالبيروقراطية وبطء ومركزية القرار، وقلة المساحة المكانية، وشح التمويل، بل وجعلها في اعتمادية مستمرة على الدعم الحكومي، فقل النشاط لجلب عقود استشارية خارجية، أو تنظيم دورات تدريبية. فضلا عما تعانيه من افتقارها لخطط وبرامج تطويرية تنموية مكتوبة ومتفق عليها، رغم أن هنالك لوائح ونظم واضحة وكافية ومطبقة في معظم الأحيان. بل وجد بعض أعضاء هذه الأقسام في الارتباط الحكومي أمنا وظيفيا طويل الأمد، فعقد العمل دائم لا يجدد دوريا، لذا من الصعب زحزحة الموظف عن وظيفته، وبسبب ذلك برزت ظواهر

سلبية جديدة، من ذلك ضعف الدافع للعمل، والكسل والتراخي في أداء المهام، وقلة النشر العلمي، وسهولة الانخراط في خلافات وصراعات لا جدوى لها، فزادت طبقة فئة المدرسين وتضخمت، وقلت الفئات العلمية الأعلى، وحتى من بين من هم في فئة الأساتذة، ما أن يحصل على الأستاذية حتى يتوقف فجأة عن البحث العلمي، وكأنه وصل إلى نهاية المطاف لا بدايته.

وحين تم التوسع في خصخصة التعليم، كما في الكويت مثلا، التي فرضت على كل جامعة خاصة الارتباط عضويا بجامعة زميلة عريقة (Affiliation)، أو عندما سُمح للجامعات الغربية العريقة بافتتاح فروع لها في الوطن العربي، كما في قطر مثلا، فرضت تلك الجامعات هوياتها وفلسفتها في التعليم، بما في ذلك أنظمتها وكتبها ولغتها الجامعية وفي أحيان أخرى حتى أساتذتها.

رابعا: اضطراب هوية فلسفة التعليم

وتتأثر هوية أقسام علم النفس بفلسفة التعليم التي تتبناها حكوماتها، فهل من مهام أقسام علم النفس نشر الثقافة النفسية؟ أم سد حاجة السوق من الاختصاصيين؟ أم صناعة المعرفة النفسية من خلال البحث والنشر العلمي؟ وفي معظم الأحيان، تكون هذه الأقسام متخمة بأعداد هائلة من الطلاب، تنفيذا لسياسات قبول مفروضة عليها من حكوماتها، لا يقابلها عدد مناسب من أعضاء هيئة التدريس، مما يؤثر سلبا في العملية التعليمية، فكم من الأقسام ألغت أو ترددت في استخدام المختبرات النفسية بحجة صعوبة استيعاب هذه الأعداد الكبيرة.

خامسا: اضطراب هوية الانتماء

وتأثرا ببداية نشأتها، نجد أن قدرا كبيرا من أقسام علم النفس في الوطن العربي يقع في كليات التربية، ويجد بعضها نفسه ضائعا في كلية الآداب التي لا يشعر بانتمائه لها، مما يعزز صورة علم النفس عند أذهان العامة بأنه دراسة أدبية فلسفية (Mohamed, 2012)، وهو بذلك لا يعكس تنوع مجالات علم النفس، بل يفرض نوعية محدودة من الخدمات النفسية (الخضر و جعفر، ١٩٩٧)، ومجالات ضيقة من الأبحاث النفسية. كما أن ضم أقسام علم النفس لكليات الآداب أو العلوم الاجتماعية لا يعكس التوجه العالمي اليوم من إلحاق قسم علم النفس بكلية العلوم. إذ أن المنهج العلمي لعلم النفس يتوجه نحو تبني التجريبية، في حين أن معظم التخصصات التي في كليات الآداب أو العلوم الاجتماعية لا تستخدم المنهج التجريبي، اليوم علم النفس مثقل بمواد ذات توجه علمي، كمواد علم النفس البيولوجي والفسيولوجي والمعرفي والعصبي والتجريبي والإحصاء والاختبارات والمقاييس، وغيرها، والتي يتفوق فيها خريجي التشعيب العلمي على الأدبي (الخضر، ٢٠٠٦).

سادسا: اضطراب هوية النظام واللغة

كما نلحظ أن هناك نظامين متبعين في هذه الأقسام، النظام الأمريكي المتبع على نطاق واسع في جامعات دول الخليج وفي الجامعات الأمريكية في القاهرة وبيروت، والآخر النظام الإنجليزي السنوي المطبق في باقي الدول العربية. كما نلحظ أيضا تأثر علم النفس في بلاد المغرب العربي، وكذلك سوريا ولبنان، بالفكر النفسي الفرنسي، فمعظم ما كان يكتب، إلى زمن قريب، باللغة الفرنسية. لكن معظم أقسام علم النفس في الوطن العربي تتبنى اللغة العربية في التدريس، ما عدا الجامعات الامريكية منها، الأمر الذي كرس الاعتمادية على الكتب العربية المؤلفة والمترجمة، مع كل ما تعانيه من مشاكل في الإخراج وضعف وقدم المحتوى، إضافة إلى أزمة أو فوضى المصطلحات التي مازلنا نعيشها إلى اليوم. وما زالت مكتبات الجامعات العربية تفتقر إلى المراجع الحديثة، لكنها تعوض ذلك من خلال الطلبات الخارجية كخدمة تقدمها للمختصين.

سابعا: اضطراب العمومية وعدم التخصص

ورغم الكثافة العالية للمحتوى النفسي لصحائف التخرج في أقسام علم النفس، إلا أن الغالبية الساحقة منها غير متخصصة بجانب معين من المعرفة النفسية، حيث تقدم علم النفس العام فقط، مع شبه اهمال لتخصصات علم النفس السياسي والديني والبيئي والعصبي والرياضي، وضعف مقررات الثقافة العامة كأساليب التفكير النقدي والإبداعي، وعلم نفس الصحة، وعلم النفس عبر الحضارات، وسيكولوجية المرأة.

ثامنا: اضطراب الهوية المهنية

عندما تقوم شركة مصنعة للسيارات في أمريكا أو ألمانيا أو اليابان بافتتاح مكتب مبيعات لها في بلد مسلم، فإنها تدرك بأن سيارتها ستتمكن من أداء وظيفتها في بيئتها الجديدة بنفس فاعلية الأداء كما هو في بلد المنشأ. وعندما يذهب مبعوثونا للدراسة في الجامعات الغربية في كليات الهندسة والعلوم والطب، لن يجدوا صعوبة في نقل المعرفة ذاتها التي تلقوها في هذه الجامعات لمجتمعهم، فجراح القلب سيجد أمامه نفس القلب الذي تدرب على فتحه وتطبيبه، ولا يهمه ما هي عقيدة صاحب القلب، والمهندس الكهربائي سيقابل نفس الدوائر الكهربائية بخصائصها ووظائفها التي درسها. ولن يلتفت إلى عادات وتقاليد المجتمع الذي يعمل به. لكن الأخصائي النفسي الذي تلقى علومه وتدريبه في الجامعات الغربية، سيواجه تحديات كبرى أمامه فيما لو أراد أن يعمم معارفه وخبراته على واقعه المسلم (بدري، ١٩٧٨). ، فعندما نأتي لعلم النفس، فإن تعقيدات الظاهرة النفسية عميقة جدا، ودوافع السلوك الإنساني ليس من السهل الاهتداء إليها، كما أن الاختلافات الحضارية بين الشرق والغرب واضحة بلا ريب، تجعل من العسير تعميم التجربة الإنسانية التي بلورت في الغرب، علي الشرق، دون تهذيب وتمحيص. صحيح أن هناك بعض المبادئ النفسية أثبتت قدرتها على

التعميم في كل المجتمعات الإنسانية، كمبادئ التعلم المشتقة من نظريات ثورندايك وسكنر وبافلوف وغيرهم، إلا أن الكثير منها يحتاج إلى تكييف ومراجعة قبل اسقاطها على بيئات جديدة، فما يعد سلوكا سويا في الغرب، كالمثلية الجنسية مثلا، يعد انحرافا واضطرابا في الشرق المسلم. يعاقب عليه القانون قبل الشرع.

وغالبا ما تكون صورة علم النفس في أذهان العامة مشوشة، فهو علم يتعامل مع غير الأسوياء، ويجتذب أساتذة لديهم اختلال في شخصياتهم، انعكس ذلك على مهنة الاختصاصي النفسي الذي لا يحظى بتوصيف وظيفي واضح في أغلب الأحيان، ولا يُفرق أحيانا بينه وبين اخصائي الخدمة الاجتماعية والطبيب النفسي، تزامن ذلك مع ضعف التشريعات التي تحمي المهنة، والممارسين، والمستفيدين، بحيث أصبح علم النفس مهنة من لا مهنة له، ويتضح ذلك جليا في كم الدورات التدريبية النفسية التي يقدمها غير المختصين في الوطن العربي، بل غير المؤهلين علميا ولا مهنيا بأي نوع من العلوم.

وفي دراسة الخضر و جعفر (٢٠٠٧) علي خريجي علم النفس بدولة الكويت، وجدا أنه ينحصر عمل ٨٧,٤% من قوة العمل الكلية المختصة في علم النفس في ١٧ وظيفة، أهمها وظيفة "مدرس رياض أطفال" (٣٣,٦%)، "اختصاصي نفسي" (١٣,٩%)، و"مدرس فلسفة و علم نفس" (٧,٢%)، وغالبية الخريجين و الخريجات يعملون في وظائف ذات طابع تربوي (٧٦,٢%)، و ١٦.% في وظائف ذات طابع إداري، كما و أن الغالبية العظمى منهم (٧٣,٩%) تعمل في وزارة التربية. و هناك ٦٠,٨% منهم تعمل في وظائف لها علاقة مباشرة بتخصص علم النفس، و ٣٠,٣% تعمل في وظائف لها علاقة محدودة بالتخصص، في حين ٨,٩% من العينة يعملون في وظائف ليس لها علاقة بعلم النفس.

تاسعا: اضطراب الهوية الجنسية

وليعذرنا القارئ الكريم على اقتباس هذا العنوان، لكن ما أردنا قوله هو أنه يمكن ملاحظة أن علم النفس علم أنثوي إن صح التعبير، يدار من غالبية ذكورية (٧٠% تقريبا)، فنجد أن معظم المنتسبين إلى أقسام علم النفس في الوطن العربي هم إناث، وهذه ظاهرة عالمية وليست إقليمية، ولكنها ترتفع لدينا لتصل إلى ٨٠% كما في قسم علم النفس بجامعة الكويت، حيث أوضحت دراسة أن قوة العمل النسائية التي تحمل مؤهلاً جامعياً في علم النفس تشكل أربعة أضعاف قوة العمل الرجالية.

نحو هوية موحدة لأقسام علم النفس في العالم العربي

إن الشعور بضياع الهوية سواء على مستوى الممارسة، أو البحث، أو التدريس، وسواء على المستوى الفردي أو المؤسساتي الذي تمثله أقسام علم النفس في عالمنا العربي الإسلامي، أوجد نوعا من القناعة الذاتية بين الاختصاصيين النفسيين أن الخروج من دائرة هذه الأزمة، أزمة الهوية، إنما يعتمد على إيجاد درجة أكبر من

التوافق بين العلوم الاجتماعية، وعلم النفس تحديدا، وبين الواقع المادي والاجتماعي والثقافي للمجتمعات التي تجري فيبها هذه البحوث والممارسات.

إن الجهود الرامية إلى بلورة هوية موحدة لعلم نفس عربي وإسلامي متوافقة مع مجتمعها العربي المسلم كانت متباينة، فمعظم جهود أجيال المختصين النفسيين إلى نهاية الثمانينيات كانت تهدف إلى نقل المعرفة النفسية واللحاق بركب الحضارة أكثر من قضية تكييفها مع بيئتها الجديدة، وأحيانا يستعمل النص الديني من أجل إضافة مسحة إسلامية على المعرفة النفسية المستوردة. وإصباغ هوية إسلامية على المعرفة الحديثة، جاء ذلك تحت مسمى أسلمة المعرفة، أو التأصيل الإسلامي للعلوم، أو التوجيه الإسلامي للعلوم، أو تأصيل العلوم إسلاميا، لكن ذلك لاقي بعض المقاومة ممن رأى أن المعرفة الإنسانية محايدة في أصلها، ولا يمكن أسلمتها، أو أن التأصيل يعني إعادة الشيء لأصله، في حين أن العلوم الحديثة نشأت أساسا في أحضان الغرب، فلا أصل لديها عند العرب.

وهناك دعوة يحملها بعض المخلصين والغيورين من أبناء الأمة العربية والإسلامية تتجه إلى أن تنطلق جميع العلوم، بما فيها النفسية، من أصول الإسلام ومفاهيمه وعقائده، ونظرته للكون والحياة وفقا للكتاب والسنة، وفهم السلف الصالح، وفي نفس الوقت استيعاب العلوم النفسية الحديثة استيعابا كاملا، ثم اجراء تكامل بينهما، مع تحييد كل ما يتعارض مع النص الديني الصحيح الصريح، قطعي الدلالة، يقيني الثبوت (مركز البحوث بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ١٩٨٧).

وقد انقسم المختصون أمام هذه الدعوة إلى فرق (رجب، ٢٠١٨)، فريق بلا هوية ولا هم، فلا نشاط بحثي، ولا تفاعل اجتماعي، ولا دور إداري، ولا انتاج فكري، وكل ما يقوم به هو تدريس ما يكلف به من مواد دراسية بغثها وسمينها، في عملية نمطية كل فصل دراسي؛ وفريق سلّم بجدوى المنهجية العلمية التقليدية ونظرياتها وتعميماتها، ويمتثل لها وينادي بها، دون أي جهد لتنقية الشوائب التي لا تنسجم مع قيم مجتمعه؛ وفريق تبنى المنهجية العلمية التقليدية مع قناعته بضرورة مراعاة الظروف المجتمعية والثقافية، ومن ذلك تنقيتها مما يتعارض مع الشريعة. ويظهر جهد هذا الفريق عند محاولة ترجمة بعض كتب علم النفس للغة العربية[١]؛ وهناك فريق نادى بتوطين علم النفس بإكسابه هوية وطنية تعكس خصوصيات الوطن الذي يمارس فيه، وظروفه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتاريخية، وربما انسجمت أو تعارضت هذه الدعوة مع قيم الإسلام؛ وفريق آخر تبنى المنهجية العلمية الحديثة، ثم قام

[١] من ذلك ما قام به قسم علم النفس بكلية العلوم الاجتماعية بجامعة الكويت حين تعاون مع شركة مكروهل لترجمة بعض الكتب النفسية لتدريسها لطلبته.

بتدعيمها بأدلة شرعية من الآيات والأحاديث النبوية، مفترضا ضمنا بصحة هذه النظريات، وفي الأمر مخاطر لا تغيب عن العقلاء، فماذا لو تم دحض النظرية؟ هنا نحن لا نخدم الإسلام في شيء، بل قد نشوهه، رغم النية الطيبة في اثبات أن الإسلام له فضل السبق إلى هذه الرؤى، ولا حاجة للتذكير بالحاصل اليوم من قبل المتحمسين لعلوم الطاقة والبرمجة العصبية اللغوية وغيرها.

أما الفريق الأخير، فهو ينادي، أو منخرط بالفعل، في محاولة بناء منهج متكامل، بهدف تشكيل هوية خاصة لعلم النفس، تحت مسمى "علم نفس إسلامي" (بدري، 2018) ، تنطلق من قيم الإسلام وتراثه، من خلال إيجاد تكامل حقيقي بين معطيات التصور الإسلامي للإنسان والمجتمع والكون، وفهم عميق لإسهامات العلوم الحديثة، وهو مدخل يتطلب اتفاقا على مسلمات التصور الإسلامي للإنسان والمجتمع والحياة والكون، وتمكنا بارعا من العلوم الحديثة من ناحية نظرياته ومناهجه وتاريخه ومشكلاته، وفهما لأصول الإسلام ومبادئه ذات الصلة بعلم النفس، وإلماما بإسهامات علماء النفس المسلمين، وقدرة نقدية للعلوم النفسية الحديثة من واقع التصور الإسلامي والمعرفة الشرعية، وأخيرا، الإنتاج العلمي في هذا المجال بحثا وتنظيرا (نجاتي، ١٩٩٠)، وهي دعوة في الطريق الصحيح، لكنها في البدايات، والعمل شاق والطريق طويل. يتطلب جهدا جماعيا مؤسساتيا يتجاوز الاجتهادات الفردية. غير أن ما يعيب هذه الجهود، هو انغلاقها علي الممارسة الإكلينيكة والارشادية، مع اهمال شبه كامل لمجلات علم النفس الأخرى.

الخاتمة :

ندعو في ختام هذه الورقة إلى أن تنطلق العلوم النفسية في الوطن العربي، بقيادة روادها في الجامعات العربية والجمعيات والروابط والاتحادات النفسية، من خصائص المجتمع العربي الإسلامي وتراثه الزاخر، وأن يدعم خطط التنمية في بلاد العربية والاسلامية، مستفيدا من التقنيات الحديثة في القياس والتواصل والرصد والتخزين والتدوين، وإلى العمل الجماعي للمختصين النفسيين لتطوير أطر ونماذج نفسية مستلهمة من الثقافة العربية والاسلامية، مرتبطة بتراثها، وتعكس حاجاتها وأولوياتها (Gielen, 2009).

كما ندعو إلى دعم جهود الاتحاد العربي لعلم النفس، والرابطة الدولية لعلم النفس الإسلامي، والرابطة الدولية لعلماء النفس المسلمين، واتحاد والجمعيات النفسية العربية القطرية، في لم شمل الاختصاصيين النفسيين، ورفع مستوى الممارسة المهنية، وضبط اخلاقيات المهنة، باعتبارها رافدا مهما لأقسام علم النفس في الوطن العربي، مع اعترافنا بالمشاكل التي تعاني منها، ومن ذلك ضعف التمويل، والصراعات، وصعوبة التواصل، والمشكلات التنظيمية وغيرها (شاهين والنابلسي،

١٩٩٨) ، كما ندعو إلى توسيع مجالات علم النفس، وعدم حصره في الجوانب التربوية والتعليمية فقط.

للأسف، لا يعد علم النفس شريكا في التنمية في أذهان الكثير من المسئولين، كما هو الحال في العلوم الهندسية أو الإدارية أو المالية، فهناك قضايا بحثية منسية أو مهمشة، هي جزء مُلحّ من أولويات الوطن العربي، على أقسام علم النفس أن توليها الاهتمام الكافي، من ذلك: الأمن والإرهاب والعنف والتعصب، واللاجئين والحروب، والتعايش السلمي، والمواطنة، والهوية والاغتراب، والدين، والتواصل الاجتماعي الإلكتروني cyber psychology .

ويحق لنا في نهاية هذه الورقة أن نتساءل، إلى أي درجة ساهمت أقسام علم النفس في نشر الثقافة النفسية في مجتمعاتها؟ وما هو دورها في بناء المجتمع العربي المسلم وفي تنميته؟ وما مدى استجابتها لحاجات مجتمعها؟ ومدى كفاءة قدرتها في المساهمة في التكيف مع قضايا أمتها؟ بل نتساءل، هل يمكن لأقسام علم النفس في الوطن العربي، الفاقدة للهوية، أن تساهم في تعزيز هوية مجتمعها؟

ونذكر هنا، بأن ما سطرناه في هذه الورقة، يمكن اعتباره استقراء يعكس اجتهادات شخصية لمؤلفها، لا ترتقي إلى درجة الاستنباط، استعان بما استطاع أن يجمعه من رؤى واجتهادات بعض رواد المجال النفسي العريبي، وهي قليلة إن لم تكن نادرة.

المراجع

أحروشاه، الغالي (١٩٩٤). *واقع التجربة السيكلوجية في الوطن العربي*. المركز الثقافي العربي، بيروت: لبنان.

أحمد، رمضان عبدالستار، وأوفه، جيلين (٢٠٠٦). علم النفس في العالم العربي. (محرر). *علم النفس في البلاد العربية*. المجلس الأعلى للثقافة: القاهرة.

الحكمي، علي بن صديق (١٩٩٧). *بعض سمات علم النفس المعاصر وعلاقته بتدريس علم النفس في المرحلة المتوسطة*. ورقة مقدمة في المؤتمر الأول للجمعية السورية للعلوم النفسية. جامعة دمشق. دمشق: سوريا.

الخضر، عثمان (١٩٩٦). العوامل المؤثرة في الأداء الأكاديمي لطلبة علم النفس بجامعة الكويت. *المجلة التربوية، ١٩*، ١٤١-١٦٨.

الخضر، عثمان، و جعفر، هدى (١٩٩٧). مجالات عمل خريجي علم النفس بدولة الكويت، *مجلة العلوم الاجتماعية، ٢٥* (٣)، ٨٣-٥٩.

بدري، مالك (١٩٧٨). علماء النفس المسلمون في جحر الضب. *مجلة المسلم المعاصر، ١٥* (٤)، ١٠٥-١٢٣.

بدري. مالك (٢٠١٨). علم النفس الإسلامي: الماضي والحاضر والمستقبل. ورقة قدمت في المؤتمر الأول للرابطة الدولية لعلم النفس الإسلامي، إسطنبول: تركيا.

حنفي، ساري (٢٠١٥). إغواءات التصنيف الأكاديمي للجامعات العربية ووهمها. *إضافات المجلة العربية لعلم الاجتماع، ٣١-٣٢*، ٦-١٢.

عيون السود، نزار (٢٠٠٠). مسيرة العلوم النفسية في الوطن العربي وآفاق تطويرها. *عالم الفكر، ٢٩* (١)، ١٥٥-١٨٣.

رجب، إبراهيم عبدالرحمن (٢٠١٨، ٢٣ نوفمبر). *مداخل التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية. التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية*.
http://azarshab.com/Default.asp?Page=ViewData&Dir=Thaqafatona01&File=09.

شاهين، روز ماري، والنابلسي، محمد (١٩٩٨). واقع الجمعيات النفسية العربية. *مجلة الثقافة النفسية، ٣٦*.

مراد، يوسف (١٩٦٥). *نشاط العرب في العلوم الاجتماعية في مائة سنة*. هيئة الدراسات العربية في الجامعة الأمريكية. بيروت: لبنان.

مركز البحوث بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (١٩٨٧). *ندوة التأصيل الإسلامي للعلوم الاجتماعية*. عمادة البحث العلمي. الرياض: السعودية.

نجاتي، محمد عثمان (١٩٩٠). منهج التأصيل الإسلامي لعلم النفس، *مجلة المسلم المعاصر، ٥٧*. ٤٦٩-٥٠٦.

Abou-Hatab, F.A-L.H. (1997). Psychology from Egyptian, Arab, and Islamic Perspectives: Unfulfilled Hopes and Hopeful Fulfillment. *European Psychologist, 2(4),* 356-365.

Gielen, U. P. (2009). The emerging global psychology movement: Lessons from Arab psychology. In S. Bekman & A. Aksu Koç (Eds.), *Perspectives on human development, family and culture* (pp. 50-66). Cambridge, UK: Cambridge University Press.

Mohamed, Wael (2012). Psychology in Egypt: Challenges and hopes. *Psychology International, 23*(1), 1-3.

Ahmed, R. A. (2004). Psychology in Egypt. In M. S. Stevens & D. Wedding (Eds.), *Handbook of international psychology* (pp. 387–403). New York, NY: Brunner-Routledge/Taylor and Francis.

Sabourin, M., & Knowles, M. (2004). Middle East and North Africa Regional Conference of Psychology, Dubai, United Arab Emirates. *International Journal of Psychology, 39* (2), 145–152.

Soueif, M. I. (1991). Psychology in Egypt throughout half a century: A dialogue between science and society. *Egyptian Journal of Psychological Studies, 1,* 17–30. [In Arabic]

Vassaff, G.Y.H. (1992). Turkey. In VS. Sexton & J.D. Hogan (Eds.), *International psychology: Views from around the world.* Lincoln, US: University of Nebraska Press.